أوزان الشعر

١ ـ الشعر الأوربي

للدكتور محمد مندور

يخيل إلى أننا قد وصلنا الآن إلى مرحلة من نمو ثقافتنا يجب عندها أن نأخذ أنفسنا بالصرامة فيما نكتب، فلا نتحدث إلا عن بينة تامة وتحقيق لما نقول، بعد أن نكون قد عمقنا الفهم، وإلا فسنظل ندهم ونتوهم أننا نعرف شيئاً نافعاً، ونحن في الواقع نضرب شرقا بغرب ضالين مضللين.

وهناك مسائل لا يكفي للحديث عنها أن نقرأها في كتاب إنجليزي أو فرنسي ثم ننقلها إلى قرائنا حسبما نظن أننا قد فهمناها. هذا لا ينبغي. ونأخذ اليوم لتلك المسائل مثلاً من «أوزان الشعر»، كما تحدث عنها الأستاذ دريني خشبة فيما يحشد من أحاديث.

يريد الأستاذ أن يميز بين العروض الإنجليزي وغيره من الأعاريض الأوربية وبين العروض العربي، فيقول: «ويحسبنا هنا أن نذكر أن العروض الإنجليزي، بل كل أنواع العروض في اللغات الأوربية، إنما أساسها التفعيلة The foot، وليس أساسها الأبحر كما في العروض العربي». وهذا قول لا معنى له إطلاقا، لأن جميع أنواع الشعر الشرقي والغربي على السواء تتكون من تفاعيل يجتمع بعضها إلى بعض، فتكون الأبحر والشعر العربي في هذا كغيره من الأشعار. وإنما التبس الأمر على الأستاذ لأنه رأى الأبحر في الإنجليزية تسمى باسم التفعيلة المقترنة لها، فيقولون Jambi meter ... الخ. وأما في العربية فقد وضعنا لها أسماء أخرى كالطويل والبسيط وغيرها. وإذا كانت في الشعر العربي أبحراً متجاوبة التفاعيل كالطويل أو البسيط مثلا حيث نجد التفعيل الأول يساوي الثالث والثاني يساوي الرابع، فإن هناك أيضاً أبحر متساوية التفاعيل كالمتدارك والرجز والهزج والكامل وغيرها. وهذه وتلك كان من الممكن أن تسمى بأسماء تفاعيلها فالمسألة مسألة مواضعة. وإذا كانت في الشعر العربي زحافات وعلل فإن الشعر الأوربي أيضاً فيه ما يسمونه بالإحلال subsitution فتراهم يضعون مقطعاً سبوندياً محل مقطع داكتيلي أو مقطع إيامبي، وفي الشعر العربي والشعر الأوربي مما لا يغير هذا الإحلال من اسم التفعيل الأصلي. وإذن فكل الأشعار من هذه الناحية لا تختلف في شيء.

وإنما تتميز الأشعار ببينة التفاعيل، وهنا نلاحظ أن الأستاذ خشبة لم يدرك بأذنه حقيقة الشعر الإنجليزي، وكان السبب في ذلك اعتماده فيما أرجح على قواميس اللغة الإنجليزية، فقد قرأ في أحد كتب العروض الإنجليزي أن هناك شعراً تتكون تفاعيله في الأيامب، وشعراً تتكون تفاعيله من الداكتيل ... الخ. مما يجده القارىء في هامش مقاله، وبحث في القاموس فوجد أن الأيامب عبارة عن وحدة من مقطعين،

ولا يرون الفكاك من أغلالها، فلماذا لا تركب الجمال العالية كما كان يصنع المهلهل ...

وندع المهلهل الذي لم يفرض على الناس شعره وقوافيه، ونعود إلى أبي حديد نسائله عن هذا الشعر المرسل، وعن طول حنينه إليه، وما باله يذكر النضال عن هذا الشعر عند ما تصدر مجلة الرسالة فينشر في سنتها الأولى استفتاء عاماً يجعل موضوعه ترجمة نثرية لخطبة أنطوني في درامة يوليوس قيصر لشيكسبير ـ والترجمة بقلم الأستاذ الجليل محمد حمدي بك ـ ثم ترجمة للخطبة نفسها بالشعر المرسل بقلمه هو ... فيما كان هذا الاستفتاء إذن؟ وفيم كانت محاولة إغراء الناس أو مفازلة أذواقهم بموضوع هذا الشعر؟ لقد كانت نتيجة الاستفتاء نصراً شبه كامل لشعر أبي حديد، فما الذي ثناه عنه يا ترى؟ وما الذي أقعده عن المضي فيه؟ ولماذا حرم أبو حديد أدبنا المصري الحديث من طرفه الرائعة، ومن روحه الدرامية الناضجة، ومن فكاهته العذبة السائغة، ومن فنه المسرحي المتفتح؟ لماذا تصدر درامته ـ «خسرو وشيرين» ـ دون أن تتشرف بحمل اسم صاحبها أو صاحبها الثائر الأول الذي ينبغي أن يحفظ له تاريخ الأدب المصري هذا الجميل الخالد، وتلك اليد النقية المباركة، ... وإلى متى تظل ملحمة «زهراب ورستم» حبراً على ورق؟ وكيف ينتصر ترسيدو في إيطاليا سنة ١٥٥١ وينهزم أبو حديد وشعراء النظم المرسل في مصر في القرن العشرين؟

ولكن ما هو هذا الشعر العربي المرسل الذي من أجله عقد هذا الفصل؟

ذلك مالا يتسع له مجال القول الآن.

دريني خشبة

أولها قصير والثـانى طويل وهكذا . وفاته أن هـذه التعاريف لا تنطبق على الشعر الإنجليزى بسهولة ، وإنما هي خاصة بالأشعار اليونانية واللاتينية ، ففى هاتين اللغتين تتميز المقاطع بعضها عن بعض بالطول والقصر ، وأما اللغة الإنجليزية واللغة الألمانيـة فتتميز مقاطعها قبل كل شيء بالارتكاز الصوتى stress ؛ فهناك مقاطع تنطق بضغط وأخرى بغير ضغط ، وعلى هـذا يكون الأيامب وحدة من مقطع لا يحمل ارتكازاً وآخر يحمله . ومن ثم لا يكون الشعر الإنجليزى « شعراً كيا quantitatine » بل « شعر ارتكاز stressed » ، وهذا هو الرأى المعتمد .

وفى موضع آخر يقول الأستاذ : « ويفضل بعض الشعراء البحر الأسكندرى نسبة إلى الإسكندر الأكبر القصائد التى نظمت فيه من هذا البحر . ويؤثر شعراء الأساة الفرنسيون النظم من هذا البحر إطلاقاً وهو يتكون من اثنى عشر مقطعاً (ست تفعيلات إيامبية مقطعين) . « وهذا القول أيضاً يدل على أنواع من عدم الدقة بل ومن الخطأ البين . فعدم الدقة نجدها فى شرح سبب تسمية هذا البحر فهو ليس نسبة إلى الإسكندر الأكبر بل نسبة إلى رواية بالذات كتبت فى القرن الثانى عشر بفرنسا « عن الإسكندر الأكبر » Le roman d'Alexandre ومنها لأول مرة استعمل هـذا البحر بدلاً من الأبحر الأقصر منه التى كانت مستعملة فى القرون الوسطى . وأما الخطأ فى ظن الأستاذ أن البحر الأسكندرى فى الشعر الفرنسى يتكون من ست تفعيلات إيامبية مقطعين ، فهذا لا وجود له فى الشعر الفرنسى ومن المعلوم أن اللغة الفرنسية قد فقدت منذ قرون : (١) الكم فلم تعد هناك مقاطع طويلة ومقاطع قصيرة إلا فى حالات نادرة فى أواخر الكلمات مثل âge ومن المسلم به عند الفرنسيين وعند جميع من كتبوا عن الشعر الفرنسى إن هـذا الشعر لا علاقة له بكم المقاطع (٢) الارتكاز فألفاظ اللغة الفرنسية لم تعد تحمل ارتكازاً stress ، وإنما يوجد ارتكاز فى أواخر الجمل ، فكل جملة فرنسية أو شبه جملة تنتهي بارتكاز يحس أنه ارتكاز شدة وارتفاع معاً إلا فى حالة الوقف ، فإنه يعتبر ارتكاز شدة فحسب . فمثلاً جملة cette maison est très belle لا نجد منها غير ارتكازين اثنين أولهما على on والآخر على bel ، والارتكاز الأول ارتكاز شدة وارتفاع فى الصوت ، وأما الثانى فشدة فقط لأن الارتفاع يسقط للوقف . وإذن فالشعر الفرنسى ليس شعراً كيا ولا شعراً ارتكازياً لسبب واضح هو أن مقاطع تلك اللغة لا تتميز بكم ولا ارتكاز . الشعر الفرنسى يسمونه بكل بساطة « شعر مقطعى » syllabique .

من هذه الملاحظات يتبين لنا أن هناك ثلاثة أنواع من الشعر كنا نحب من الأستاذ خشية ما دام قد أراد أن يبصرنا بحقائق الأوزان أن يميز بينها لنحاول بعد ذلك أن نرى أين يقع منها الشعر العربى ، وبذلك قد نستطيع أن نساعد على ظهور أنواع جديدة من الشعر العربى تمكن شعراءنا الكبار الذين يعجب بهم الأستاذ من إجادة فنهم حقاً . وعندئذ سنرى المسرحيات تكتب شعراً كما كانت تكتب منذ ثلاثة قرون ، ونكون بعملنا هذا قد أثبتنا للعالم المتحضر أنهم مخطئون فى عدم استمرارهم على استخدام الشعر فى المسرحيات .

هذه الأنواع الثلاثة هى : (١) الشعر الكمى (٢) الشعر الارتكازى (٣) الشعر المقطعى

أما النوع الأول فهو الشعر اليونانى واللاتينى القديم ، وأما النوع الثانى فهو الشعر الإنجليزى والألمانى ، وأما الثالث فهو الشعر الفرنسى

الشعر الكمى :

لنأخذ لذلك مثلاً بيت فرجيليوس فى الأنيادة :

Infandum regina iubes renovare dolorem[1]

نجده مكوناً من ستة تفاعيل ، وكل تفعيل مكون من مقطعين طويلين (سپوندیه) ، أومقطع طويل ومقطعين قصيرين (داكتيل) ، ماعدا التفعيل الأخير فقطعه الأخير قد يكون قصيراً ويكتفى به لأن الوقف يعوض المقطع الآخر القصير الذى حذف . وإليك التقطيع مع رمزنا للمقطع الطويل بالعلامة ـ وللمقطع القصير بالعلامة =

Infan-dum re-gina iu-bes reno-vare do-lorem

وأما الأساس الذى يعتبر به المقطع طويلاً أو قصيراً فيرجع إلى الحرف الصامت voyelle ؛ فإذا كان طويلاً بطبيعته كما هو الحال فى بعض الحروف اليونانية ، أو كان حرفاً مزدوجاً

(١) هذا البيت فى مطلع الأغنية الثانية من الأنيادة وترجمته « أيتها الملكة ـ إنك تأمرين بتجديد ألم لا تمكن العبارة عنه » . قاله إينوس بطل الملحمة عند ما طلبت إليه ديدون ملكة قرطاجنة أن يقص عليها نبأ ما كان من تدمير الأغريق لمدينة طروادة وطن البطل الأصلى .